لماذا

للكاتبة الفرنسية آن يانر

بقلم الأستاذ محمود خفيف

ى صديق شاب . وكم اتخذت من قبله أصدقاء ! ولكن لم يكن فيهم من كان له فى نفسى أثر . صحبتهم إلى السينما أو إلى الرقص ، كانوا يجيئون أحيانا إلى مكان عمى فرادى باحثين عنى ، فما هو إلا أن ينقضى المساء ثم لا يبقى لى من صحبته ذكر فى خاطرى

ولكن هذا الصديق يختلف عن هؤلاء . ولست فى الواقع أعرف من هو إلا أنى أشعر حياله كما لو كان ملكا لى . ولم يتحدث إلى هذا الصديق قط . ولكنى أفهمه حق الفهم من نظراته إلى . وإنى لأعرف أنه لا يريد أن يغرر بى أو يتخذنى هزوا ، وها أنا ذى أنتظر أن يسعى إلى

ولا يكاد ينظر إلى صديق هذا ، حتى أجدنى غير ما كنت . ثم أشعر أنى لم أعد أرغب فى الرقص وأحب أن أبقى معه وحده صامتة . ثم إنى حين ينظر إلى أشعر أنى فتاة أخرى ، فأنا أحس عندئذ أنى أكثر ذكاء وأكثر احتشاما . وأحسب أنه يحبنى على هذه الصورة

لقد رأيته أول مرة فى مرقص كنت أذهب إليه مساء كل سبت مع زميلة لى . وكان يجلس وحده ، وسرعان ما أخذته عيناى إذ لم يكن رجل مثله فيمن حوله . ولست أصفه بالوجاهة فحسب ، فقد كان شيئا فوق هذا . لقد كان له من جمال السمت ما يميزه من كل شخص يحيط به

كان حسن الهندام ذا شعر يعجب من يراه ، ويدين جميلتين أو مرموقتين كما يقول عنهما الناس ، ولم يكن صديقى من الطبقة التى أنتمى إليها

إنه ليشرب وحده ، ويطعم وحده ، وينظر إلى كل راقصة ومراقصها ولا يدعو إلى مائدته امرأة أبدا ، ولقد ظننت أنه سوف يدعونى إليه ، ولكنه لم يخطر ذلك بباله يوما ؛ كان ينظر إلى فحسب . وضحكت ذات مرة ضحكة عالية أسترعى بها انتباهه ولكنه أشاح عنى فى صورة أشعرتنى بكثير من الخجل كما لو كنت ارتكبت جرما . وأحسست أنى أزعجته ، وإن كنت لم أتبين على أى وجه كان ذلك ؛ ولبثت بقية ليلتى صامتة

ورأيته هناك فى الأسبوع التالى وكان

لا يزال يجلس وحده . وقد استمر الحال بضعة أسابيع على هذا المنوال . إنه ينظر إلى لا أكثر ولا أقل ، وهـذا كل ما أجده منه . ولطالما تعجبت ، وذهبت بى الظنون كل مذهب : أيتخذنى مسلاة ؟ فإنه لا يحـاول أن يتعرف إلى . أبه نوع من الجنون ؟ أهو من سـكره لا يفيق ؟ ولم أجرؤ على أن أسأل أحدا فما أحب أن أظهر بمظهر من تسعى فى طلبه . ولم أتحدث بكلمة عنه إلى جانين صاحبتى التى أطلعها على كل شئ ، وأتحدث إليها عن كل شئ . ولست أدرى لماذا لم أنبئ صاحبتى . وأكبر الظن أنى خشيت ألا تفهمنى . وربما ذهبت إليه فأنبأته وأفضت إليه بكل شئ ، تقصد إلى العبث والمزاح

لقد احتفظت بحبى سرا دفينا كما لو كنت أكتم ذنبا . وأعجب من ذلك أنى كنت أشعر أحيانا بالخجل من هذا الحب . أجل كان يخجلنى أنى أكتمه . وإنه لتمر بى أيام فلا أمسك لحظة عن تذكر صاحبى ، إنى لأحلم به إذا نمت ، وإذا أفقت كان شخصه ماثلا فى خاطرى كأن وضعت صورته الشمسية أمام عينى

وأحسست من حبى أول الأمر بالسعادة ثم أحسست بالغضب . وازدريت صاحبى ، وما لبثت أن خشيته كآبة شـديدة . والآن أشعر بشئ من الخوف ولست أدرى لهذا الخوف سببا

لقد سئمت سؤالى نفسى : ترى من هذا الرجل ؟ ولم لا ينفك ينظر إلى ؟ إنى لأعلم أنى أعجب من يرانى ، ولـكن هناك مثلى كثـيرات ، وأكثر منهن من يفقننى جمـالا ... لذلك حق لى أن أتساءل ماذا يبتغى منى ؟ لقد اختلـط على الأمر حتى ما أدرك شيئا سوى أنى أحبه . ربما كان مرد ذلك إلى أنه يلهو بى ويتسلى بأن يلعب بلب صبية مثلى . ولـكنى لست أراه كهؤلاء الذين يلهون بمثل هذا العبث

ولقد تحلق حوله ذات ليلة صديقات ، وكانت صـديقاته يتدثرن بالفراء ، وكن يضحكن ضحكات عالية ، ولقـد أورثنى مرحهن الضيق ؛ على أنى مالبثت أن تبينت أن ذلك لم يغير شيئا مما كان بينى وبينه

إنه فى تلك الليـلة ما برح ينظر إلى . ومن أعجب الأشياء فى الحب شدة شعور من مسه الهوى بكل شئ يمت إلى عاطفته بسبب . لهذا فهمت نظراته ، ولم أحس فى نفسى شيئا من الموجدة عليه . بل لقد فطنت إلى أن بينى وبينه تفاهما هو نوع من الموافقة على أنه لا يمكن حينذاك أن يزيد على ما كان عليه . وعلى ذلك فقد قنعت بأن أنتظر . ولئن كان يريد أن يبلغ مبلغ احتمالى فلا على

من ذلك فإن شيئا لابد أن يحدث بيني وبينه يوما ما . وإني لعلى يقين أن حالتنا هذه لن تمتد إلى آخر العمر . وإذا لم يكن ما بيننا هو الجد فلن أفكر فيه بعد اليوم وأحسب أنه من جانبه يرى هذا الرأى

* * *

وقضيت على هذه الحال أياما وإنها لتجربة عجيبة حقا . إلى أن كنت ذات ليلة فأحسست أنى كاسفة البال محزونة ، أتذوق طعامى ولا أكاد أسيغه . وربما كان ذلك هو السعادة الحق ، ولكنى لم أذق مثل هذا من قبل ولست أدرى ماذا بين شعورى هذا وبين الأسى من فرق

وكنت على ثقة أن جانين لن تلبث أن تحضر إلى فتنتشلني مما أنا فيه . ولبثت أطل من نافذتى قلقة أحس ضيقا شديدا ، وأشعر بالحسرة لأنى لست أمضى مسرعة إلى الرقص قبل الموعد كما كنت أفعل من قبل وملء نفسى النغم ، فتلك كانت حالى التى تعودت . أما الليلة فحسبى أن أنظر إلى قطرات المطر ! وإن مرآها ليشعر النفس بالحزن كما يشعرها به الضباب ، فإنها لدقيقة حتى لا تكاد تبصرها الأعين ، وإنها لتكاد تحجب نور المصابيح ، وهى كذلك تخفت الأصوات . ولقد كنت أحب المطر من قبل وما غشيتنى منه كآبة قط . بل لقد كان الأمر على عكس ذلك فكان المطر ينعشنى . وكنت أحب كذلك الأضواء والأصوات إذ كانت تبعث فى نفسى من النشوة ما تبعثه الراح فى نفوس غيرى . وأغرمت بالمشى فى الشوارع المزدحمة لأستمع أصوات الباعة وأبواق السيارات . وكنت بحيث إذا سمعت نغمة الفالس ورأيت الراقصين ، وجدت فى ذلك ما يكفى لأن يشيع الطرب فى نفسى ، ويجعل عينى ترقصان ورأسى يدور . وكثيرا ما قال لى أصحابى وصويحباتى إنى أسعد بمجرد الوجود . ولكنهم وا أسفاه لن يستطيعوا أن يقولوا ذلك اليوم فإنى لأشعر أنى أكبر سنا وأكثر عقلا ... وأحس الليلة كثيرا من التعب ، ومع أنه لم تمسسنى وعكة شعرت كما لو مسنى الضر . ولم ترفع الصحاف من مائدتى ، ويبدو الإهمال فى غرفتى ، مما تبصره العين من طعامى الذى تراكم فى طبق واحد وكأسى التى لا تزال ملأى ، وفوطتى الملقاة على البساط

ما أشد ما يبعثه هذا المنظر من حزن ! إنى لأحس ما تحسه ذات الضنى ، ولكنى أشعر أنه هناك يتطرقنى . ولست أدرى ما إذا كان يشرح صدرى لهذا ، ومع ذلك فإنى أتحرق شوقا لرؤيته . أجل أكاد تقتلنى الرغبة فى لقائه الآن

لن أستطيع صبرا بعد ذلك . إنه يجب أن يكلمنى ؛ وتطلعى إلى ذلك دون نتيجة إنما هـو الموت شيئا فشيئا كل يوم

ليست بى رغبة فى الرقص ، ولست راغبة فى الذهاب إلى المرقص . وما كنت أذهب إلى هناك من أيام مضت إلا لأراه . ولكم أحب أن أقابله فى أى مكان غير هذا فى حديقة مثلا أو فى قهوة صغيرة حيث لا يوجد من يحيطون به . أما هنا فإنه ينبغى أن أتظاهر بأنى أمتع نفسى كيلا يفطن إلى سرى أحد . وهـذا مجهود يشقينى . ولكن هل يشقينى حقا ؟ هل أستطيع أن أقول صادقة إنى لم أجد فى ذلك متعة وأنه لم يكن واجبا فرض نفسه على ؟

إنى هناك مضطرة إلى أن أعمل ما لا أريد وأقـول ما لا أحب . فإذا رفضت أن أراقص شخصـا فربما ظن أنى أتخير الرجال . وليس ذلك هو الحق فإن فى الرجال من ينفرنى . فيهم من يبلل العرق أيديهم ، وفيهم ذوو الشعر الذى يفرز مايشبه الدهن ، وفيهم من يحمر وجهه إذا سخن . ولقـد تبينت أن ذلك كلـه ضرب من الحقارة ، وأحسـست أن صديقى الذى لم أعرف بعـد من هو كان يزدريني لأنى لم أفطن إلى ذلك من قبل . لقد تغيرت شيئا فشيئا حتى أصبحت وكأنى دخلت فى إهاب فتاة أخرى

وإن ذلك يضايقنى ولـكن فيـه شيء من المتعة . بيد وإنى ليحزننى أحيانا الا أكون ما كنت من قبل ! ألا ما أشد تعقد الحب !

يالهى ! ها أنا ذى فى غرفتى منذ ساعة لا أعمل شيئا وأبدو قبيحة المنظر قبحا مروعا ، هندام غير منتظم وشعر أشعث ، وأنف يبرق من الركام . لابد أن أصلح من حالى لتتعلق بى الأبصار . آه ! مالى أرتعش ؟ لابد أن أكون حذرة فى تبرجى مخافة أن تحدس جانين أو غيرها شيئا . ولابد أن أحتفظ بسرى طى الضمير حتى أصبح على بينة من أمرى

إنى بسبيل أن أظفر بالسعادة ، ولسوف أحظى بها ، وأنا منها جد قريبة . إننا لن نستطيع أن نظل صامتين أكثر من هذا . وإن نفسى لتزداد رغبة يوما عن يوم حتى ليصبح تنفسى تنهدات طويلة . ولابد أنه يشعر مثل هذا الشعور

أيتنحى المطر عن الذهاب ؟ كلا فإنى أحب المطر . ولسوف نعدو تحته حتى نبلغ المرقص . وسوف أدخل وشعرى يبرق بقطرات الغيث ويشرق منداة من أثر الهواء البارد البليـل كالفا كهـة أخرجت لتوها من الثلج

وأسرعنا الخطى صوب المرقص ، وكانت لاتكف جانين عن الثرثرة . وقلما أصغيت

إليها، وقد كنا متأخرتين فقلت لنفسي: هي أنه خرج أو لم يأت هذه الليلة ! لقد اعتدت أن أراه كلما دخلت صالة الرقص يجلس فى نفس المكان ويحييني بنظرة . إنه يثبت فى نظرته ولكني لا أجد فيها شيئا من الابتهاج، وإن كنت أقرأ فيها كل مرة قوله لنفسه «ها هي ذي قد أتت »

ولقد ضايقتني جانين بعض المضايقة بثرثرتها التي لا تفتر . ولقد قيل: قل لي من تصادق أقل لك من أنت . وأملت أن تهدأ بعد حين فإني لا أحب أن يظنني على شاكلتها

ولقد توثقت المودة بيني وبين جانين . ولم يكن فى حياتها شيء يختلف عن حياتي . وهي لحسن الحظ لا تدري أني ثقفت أشياء كثيرة . وكنت أصيح بها أحيانا « أمسكي ياجانين . . كفى » وكنت أحيانا أمزق الزهرات الصناعية المثبتة فى شعرها فإنها لم تكن مناسبة قط . ولقد نظر صاحبي ذات ليلة إلى المشط الماسي الرائع المثبت فى شعري ، نظرة جعلتني لا أضع فى رأسي ذلك المشط أبدا . لقد أصلح من ذوقي ، وبعد عجيبا أن كان مرده إلى شخص لم يتحدث إلى قط . وإني الليلة أبدو جميلة وإن لم يكن فى ملابسي شيء مما يأخذ العين

لقد كنت أرتدي فستانا أسود جديدا لا شيء فيه من بهرج ولا زينة ، وكان شعري متموجا بعض التموج وليس فيه حلي . ولقد أردت أن أكون على نقيض جانين لأني أعلم أن ذلك يسره

آه ! إنا على مقربة من الرقص ! وإن قلبي ليثب فى صدري ، وإن خطاي لتبطئ . لقد جذبتني جانين من يدي وأنا شديدة الاضطراب . ولو لم أخف من دخول الرقص وحدي لطلبت إليها أن تسبقني — ها قد بلغنا الرقص ! إني خائفة كما كنت أبدو حين كانوا يسألونني أسئلة فى المدرسة . لقد فتحت الباب جانين وحيانا مزيج من الدخان والموسيقى والضوضاء ثم لفنا هذا المزيج وشملنا . وإني لأحس أول الأمر كما لو كنت عمياء ، ولكني أستجمع شتات شجاعتي وأفتح عيني — أحمد الله — إنه هنا !

ما أشد ما يبدو من هدوئه وسط هذا المكان الهائج المزدحم ! لقد أشاع ذلك فى نفسي سكينة عظمى ، لأني شعرت أنه إذا توقح أحد على أو ضايقني أقبل هو ليتقذني إذا دعوته . وإني لأحب أن أكون فى حمايته فإن لقتي به جد عظيمة . ولقد يبدو ذلك منى سخيفا إذ لست أعرف شيئا عنه .. ولكن ماحيلتي وهذا شعور لا قبل لي بالتخلص منه ؟

وقلت فى نفسي : يا عجبا ! لقد كنت

عازفة عن المجيء إلى هنا ! لاشك أنى كنت مجنونة ! وبينما كنت واقفة هناك إذ عثرت لنا جانين على مقعدين بالقرب من فتية أصدقاء كنا نعرفهم . وكانت الصالة مكتظة ، ورحت أنتقل فى عسر شديد بين المقاعد والموائد ولا أفتأ أقول : « معذرة » كلما خطوت خطوة لأنى كنت أصدم كل مائدة . . يا إلهى ، إن مائدتنا ملاصقة لمائدته ، وإنى لا أقوى على رفع بصرى إليه . ولقد لاحظت ذلك جانين فقالت « ماذا دهاك وما هذا الذى يرتسم على محياك ؟ » ووددت لو خسفت بى الأرض . وخالجتنى رغبة فى الخروج من الصالة !

وذهبت جانين لحسن حظى إلى حلبة الرقص ورفضت أن أذهب معها . . ويلاه ! ينبغى أن أتماسك فأقضى على مابى من اضطراب شديد . ولكنى لا أستطيع . إنى لأبدو كما لو أنى اخترت هذا المكان عن قصد فإنى على مقعد يجاوره ! وإنى لأشعر كما لو كان يحملق إلى ولكنه ينظر أمامه لا يحول بصره ولا يتحرك !

إذا التقت عيناى بعينيه هذه الليلة ، فلن يجيء ذلك عفوا . إنه يحدث لأننا هكذا أردناه . ولكننا نجلس كلانا فى غير حراك كصورتين جانبيتين على وجهى نوط ! (ميدالية) . ويشتد اضطرابى حتى لأحس أن بى سقما ، وأكاد أفضل لو أنى جئت فلم أجده . ولكننى أتلهف على أن يحدثنى وتشتد لهفتى إلى حد أن أشعر أنه يسمع مايدور بخلدى فيحمر وجهى كأنه قطعة من الوهج

وينتهى الرقص ويعود الراقصون ومراقصاتهم إلى الموائد . ويطلب الفتية كئوسا من الخمر المشعشعة . وأنظر ابتهاجهم وأرى كيف يتنادون فأتظاهر كما لو كنت لاتربطنى بهم صلة ؛ ويبدو ذلك منى سخيفا لأنه يعلم أنى أعرفهم

وتملأنى الحيرة وأنا بجانبه . ويدخل المكان قادمون جدد ويتزاحف الناس بمقاعدهم متلاصقين وأجدنى أتزحزح حتى أزداد قربا منه ، وتمس ملابسى معطفه مسا خفيفا ولكنى أشعر كما لو هزت الكهرباء بدنى من قمة رأسى إلى إخمصى ! فأثب وألتفت نحوه ، ولأول مرة أثبت عينى فى عينيه ثم أقول : « أسألك المعذرة »

ولعله لم يفطن إلى شىء ، ولذلك يتعجب من قولى هذا . وربما ظن أنى حمقاء ، ولكن لم تعدلى حيلة وقد حدث ماحدث . وابتسم وهو يقول « عفوا »

آه ! كم أحببت صوته ! وكم أحب كل شىء يحيط به ! ولقد كان يقول لى غيره من الفتية « عفوا » قبل ذلك ، ولكن

أفواههم كانت تبدو كما لو ملأتها الغراء ..

ولكن أهذا كل ماسيقوله ؟ أيقف عند هذا ؟ يالهى إنى أسألك ألا يتوقف الآن . ألا يحب أن يحدثنى ؟ أكان يكذب كل ليلة حين كان ينظر إلى ؟ ولم أطق صبرا فتمتمت قائلة « إن الطقس حار الليلة ، أليس كذلك ؟ » إنه يبتسم ثانية قائلا « جدا » ولا يقول غير ذلك . أتراه يعبث بى ويسخر منى ؟ ولكن ابتسامته لاتنم عن هذا فقد ابتسم فى ظرف . ويظل ينظر إلى دون أن يتكلم كأنما ينتظر أن أمضى أنا فى الحديث . وأحس أنا كما لو كنت أغرق ولكنه لايمد يدا لينقذنى . ورأيت أنه لابد لى أن أتحدث فإنى إن لم أفعل ذلك الآن فلن يكون أبدا . ففلت أشير إلى الموسيقى « إنها جوقة جيدة » فقال « لابأس بها » . ولقد فاه بهذه العبارة ليوافقنى فحسب ... تبينت ذلك فيما ارتسم على فمه . وعالج نفسى شعور عجيب كما لو كنت قد فهت بكلام سخيف ولم أدر ماذا أقول بعد ذلك ...

ولا يبرح ناظرا إلى فى صمت ، وقد ارتسم على محياه مزيج من التلطف والتسلية . إنه لن يأخذنى مأخذ الجد وإن ذلك ليكربنى ولكنى أقول لنفسى لا ضير فقد يكون وراء ذلك ماهو أسوأ ؛ ثم إنى أستشعر من الثقة قدرا لم أستشعر مثله من قبل وأقول صبرا ما دام يفكر فى . وينبغى ألا يتطرق إلى نفسى اليأس بمثل هذه السرعة . وإذا كنت لا أستطيع أن أتحول بفكرى عنه فالذنب فى ذلك ذنبه ، فلا ينبغى أن ينظر نظرات كهذه إلى فتاة لايحبها . ومع الحق كله إذا اعتقدت أنه يحبنى وإذا أظهرت له الحب كذلك . ومن جهة أخرى إنى لم أر فى حياتى رجلا خجولا مثله فى سن كسنه . إنه لم يعد بعد غلاما فهو فى الثلاثين من عمره على الأقل . وأفرغت كأسى فى جرعة ، فبدا ذلك حلقى وكاد يخنقنى ، ولكنى أحسست أنى خير مما كنت . وعاد بعض الفتية ومرافقاتهم إلى الحلبة ، وبقيت فى مكانى . وأراد فتى أن يما كسنى فقال « بعد أن تأخذى حظك من الراحة اكتبى إلى رسالة » وأحسست أنه متغيظ ولكنى لم أعبأ به . واتجهت إلى صديقى وقلت فى ثبات « ألا ترقص أبدا ؟ » فأجابنى بقوله « لست أحب الرقص » ثم تبدو صرامة فى وجهه ويشيح عنى . ويعود بيننا صمت طويل أحسست أنه باعد بيننا بأميال . وأتفكر ثم أتفكر ، وكلما تفكرت أحسست أنى منه أسوأ مما كنت ... أسوأ كثيرا لعمرى . الآن أدرك لماذا يجيء إلى هنا . إن نفسه تنطوى على ذكرى ! هذه هى حاله لا شك . لقد كان يحضر إلى هنا من قبل

ولم يكن يومذاك يحضر وحده . ولا بد أنى أشبه صاحبته ، وهذا سبب نظره إلى دائما . وأرتعد وأنا على مقعدى وأنب من الألم . يا لى من بائسة ! لم يعد ثمة لى من أمل ! ولعمرى ما هذا الذى كنت أفكر فيه ؟ ما هذا الذى كنت أمنى نفسى به ؟ أهو رجل كهذا الرجل ؟ إنها لسخرية بالغة !

وينتابنى شعور بالسقم ، وأحس كما لو كان قلبى يتقطع . ويضع يده على ذراعى فأقول لنفسى إن لم يسحب يده فى الحال فسأصرخ ، وأرى أنه لحسن الحظ لا يلاحظ شيئا . . ثم إنه قال لى « أتحبين الشمبانيا ؟ أقصد النوع الأصيل . » ولم أذق قط ما هو أقوى من الخمر الشمشمة ولكنى أومأت إيماءة القبول وأنا أعض على شفتى وأحس كأن حلقى لا يريد أن ينطلق

ومما زاد حالى معه سوءا على سوء ما كان بغيضه على من ظرفه وتلطفه ، فلقد كان من الظرف بحيث لا يسعنى إلا أن آخذ كل شىء بقدمه إلى ، وإنى لآخذ كل شىء وأنا أشعر أن ليس وراءه ما يحمل له معنى

ثم اتجه إلى قائلا « هذا حسن فلنحاول أن نشرب زجاجة إذا كان لديهم هنا ذلك النوع » ثم تقبل السافية على إشارة من يده ، ويحضر لنا صاحب الصالة بنفسه زجاجة مما طلب ، ويبدو عليه الاهتمام وهو يضعها أمامنا وتنظر إلينا جانين ومراقصها وهما يدوران فى الحلبة وتشير إلى بذقنها وأقرأ فى وجهها أنها تقول عنى « لقد بلغت منه ما تريد وليست صاحبتى بحمقاء » آلا ليتهما تعلمان ما بنفسى !

وأدور بعينى أنظر فى الصالة فهذه آخر مرة لى فيها ثم أرفع رأسى قائلة له « أشرب نخب صحتك يا سيدى » فيجيب قائلا « وأشرب نخب هنائك يا طفلتى »

ويسود الهدوء فى الصالة شيئا فشيئا ، فقد أخذ منذ لحظات يغادرها الناس ، ولم يبق إلا أربعة أشخاص أمام المائدة التالية وتتجه جانين بنظرها إلى وتصيح بى قائلة إن المكان أمسى فاضيا وتحاول أن تغرينا بالانتقال إلى محل آخر وتومئ لى بعينيها ولكنى أتظاهر بأنى لم أفطن إلى ذلك ، ثم أحس أنها صارت تضايقنى . وتقبل جانين آخر الأمر وقد أشبعت نفسها من الرقص فتمد إلى يدا بليلة قائلة « إلى اللقاء فى غد »

إنها صائغة بى ولكنى أتنهد ولا أجيب إذ تدعونى . ألا إن الحياة ساعتئذ شىء عظيم . وحسبى من عيشى هذه الهنيهة فلا حساب لشىء غيرها وها هو ذا بجانبى !

وأسمع نفسى أتكلم ، ويخيل إلى أن صوتى يأتى من بعيد وقد أمله سكون عميق امتزج به حفيف لا أدريه . إن هذا ليس

بصوتي ولست أنا التي أتكلم ... إني أسمع صوته هو كما لو كان هذا الصوت بداخلي وإنه لشعور عجيب!

ويحجب النور على الحائط ضباب مفاجئ؛ كما كان يحجب نور الشارع منذ قليل ضباب بفعل المطر؛ وتقترب منى الجدران أحيانا بحيث لا أستطيع أن أراها، وقد عشيت عيناى كما لو كنت أنظر فى قرص الشمس، وتبتعد عنى الجدران ثم تقترب، وتهتز وتتأرجح فتحملنى معها، وأحس أنى أسمع صوتا كذلك الذى تسمعه الأذن إذا وضع فوقها إحدى قواقع البحر!

وقد حال بينى وبين الشمبانيا منذ لحظة قائلا: «حسبك الآن»؛ ولكنى أمسكت بكأسى فى إصرار جعله يضحك ويدعنى أشرب. وبدا كأنه أب يداعب ابنته الصغيرة وهو إلى جانبها يحميها وإنه كذلك يحمينى

لقد شربت منذ لحظات لأنى كنت حزينة، وإنى أشرب الآن لأنى سعيدة! أجل ... ولم لا؟ إن الأمر أيسر مما تظن ... إن الليل لن ينتهى أبدا، وإن كل شئ يجرى إلى غير نهاية!

ورأيتنى ذات شخصيتين. وإنى أنظر تارة احتقار إلى شخصيتى الأخرى. وإنى أحب وجهى فى المرآة وجهى الذى أراه الليلة، ولا أكاد أعرف نفسى. إن عينى تبدوان أكبر من حقيقتهما ووسطهما حوتان متيقظتان كذلك الضوء الذى ينعكس من الماء وتطرف أهدابى ويتندى جفنى

كلا .. كلا لست أشعر بنفسى شعورا أضطرب له. وإنى أحس الشجاعة وهدوء الأعصاب. وأضع يدى مبسوطتين على المائدة وأثبت فى عينيه نظرتى. وهذا مهم؛ فنظرته هى كل شئ عندى، وإنها لتعنى أكثر مما يفعل ساعدان أيا كانا

وأحس الرغبة فى مزيد من الشمبانيا؛ كما أحس الرغبة فى التحدث إليه، وأفتح له قلبى وأخبره بكل ما كان هنالك يؤرق روحى. وينظر إلى كما أحس أنه ينظر إلى طفلة أفسدها التدليل ويبدو وجهه محزونا، ولكنه يقول لى فى ثبات ما عرفت مثله منه «إنك ذاهبة الآن إلى بيتك. يجب أن تفعلى ذلك فى هذه اللحظة. وأرجو أن تغفرى لى بقائى بعدك هنا لحظات ... من أستطيع أن أرافقك حتى بيتك؛ وسوف أدعو إحدى النادلات هنا لتصحبك .. أوه ... أرجوك ... أرجوك ... لا تبكى»

وكانت تنهمل دموعى وأنا ممسكة بإحدى يديه قائلة «لا يمكن أن يكون هذا صحيحا .. لن تستطيع أن تتركنى وأن تجتنبنى .. كلا ليس هذا بصحيح»

ولم أستطع أن أتوقف هذه المرة وكانت

تندفع كلماتى فى سرعة كسرعة دمعى إذ يتساقط فرحت أقول له « ليس لك من حق فى أن تعاملنى هذه المعاملة . . لقد طالما حلمت بك . . أجل كثيرا ما فعلت ذلك حتى تعلمت أن أحبك ، وأن أعرفك على بعد . لقد كنت حياتى بالليل وبالنهار وإنك لتعلم ذلك . ولو أنه بدا عليك أنك تسخر منى مرة لقضى الأمر بينى وبينك ، ولكنك مضيت تتطلع إلى عن قصد كما لو أنك تشعر بنفس شعورى . . إنى أدرك بفتاة أخرى ، أليس كذلك ؟ ولكن ماذا يعنينى من هذا إذا كنت تحب صورتها فى ؟ إنى سوف أكون لك الفتاة التى تقبلها وسوف تأخذنى بين ذراعيك . ولم أحلم بشئ غير هذا . وإنى لأراك فى كل مكان . وإنه ليحدث أحيانا أن أعدو فى الشارع خلف رجل لأنه يشبهك وأعرف حينذاك مبلغ حمقى . وحين أكون فى بيتى أتحدث إليك فى جهر ، وحين أعير ثيابى أسأل نفسى ما إذا كانت تعجبك . ولقد غيرت طريقتى فى تصفيف شعرى فهل لاحظت ذلك ؟ إنى أعرف الآن ماذا تحب . إن فتاة غبية مس الحب قلبها هى أذكى كثيرا مما تظن وإنك لا تدرى أى سنيع قدمته لى . ما الأصدقاء ؟ إنى لم أعد أحفل بأحد منهم . فالفتيات عبء على أعصابى ، والفتية مبعث ضيق لى . وإنى لأحس نفسى غريبة حتى فى غرفتى التى تعودت أن أحبها وما ذلك إلا لأنى أعيش فى دنياك ، تلك التى بلغت من البهجة ما أحسست معه أنها حقيقة لا خيال . لقد جعلتنى أترك حياتى السالفة دون أن تحل محلها حياة أخرى . والآن تريد أن تسقطنى من حسابك ! وماذا عساى أصنع بعد ذلك ؟ ماذا بقى لى ؟ خبرنى ماذا تريد ؟ »

ولم أستطع المضى فى كلامى فقد ارتعد ذقنى وغاب الدم من يدى حتى ابيضتا . ورأيته منكس الرأس يمس يدى فى رفق وبطء . وعرفت أنه يريد أن يتكلم فتعلقت أنفاسى وأحسست كأن قلبى يوشك أن يقف . يا إلهى لست أقوى على عذاب بعد هذا . رب اجعلنى أحتفظ به . لست أقوى يا إلهى على فقدانه الساعة ..

وحملقت فى عينيه وانتظرت ، وبدا عليه أنه كذلك يتألم ولكن ليس على شاكلتى . إنه يبدو مستسلما كما لو أنه اعتاد ذلك . وإنى أحس أنه يألم ، ولكنه يرثى لحالى

وأمسكت الجوقة وأخذ الموسيقيون يضمون أدواتهم . ونظرت إلى بيان قد أغلق فيما لى كأنه تابوت . وراح الخادمات يضعن الكراسى مقلوبة فوق الموائد . وكان لا يزال هناك بعض الضوضاء فى حجرة صغيرة هى حجرة الشرب ، وقد دخلها بعض الزبائن يشربون كؤوسهم الأخيرة

وبات كل شئ هادئا كما هو الحال

كل يوم عادى . وأنا بجانبه أتلوى من الألم وأنتظر أن يتكلم وأحسست أنه إذا جذب يده من يدى وقعت فى الأرض ، أقع كما لو جثم على صدرى كابوس فقد كانت يده هى الحلقة الوحيدة التى تربطنى بالحياة

وأخذ يصب الشمبانيا بيده الطليقة فى كأسينا . أيريد بهذا أنى صرت محتاجة إليها ؟ لقد وددت أن أصرخ بكل قوتى قائلة «لا» كما لو كانت هذه الكأس الأخيرة كأسا ملعونة !

رحمتك يارب . لست أطيق هذا العذاب وإنى أحبه .. أحبه بكل قوتى ..

وسمعت نفسى أغنى بعبارات أكررها مرات كما تفعل البلهاء ، وقد توترت أعصابى حتى لقد أيقنت أنها سوف تتحطم كما يتحطم غصن ميت . وشعرت كما لو كنت على حافة هاوية بعيدة القرار وأنى موشكة أن أتردى فيها . ياله من هول ! وشد ما علانى الرعب ...

لقد كان هذا الصمت مرعبا . وكان هذا الصمت القصير فى حساب الزمن وكأنه عمر من الشقاء والألم وكأنه أبدى كالحاقة نفسها

ويأخذ فى الكلام فأرهف سمعى إلى كلماته ، وتخرج كلماته من بين شفتيه كلمة كلمة فيقول «أى طفلتى المسكينة : لم يكن يدور بخلدى أن حالك فى مثل هذا السوء . أرجو أن تغفرى لى ما أفعل بافتاتى المسكينة . ينبغى أن نخلص كلانا من هذا الوضع فورا ، وبذلك يترك كل منا صاحبه ... لا تتكلمى ... استمعى إلى ... يجب أن تغادرى هذا المكان الآن وأعدك ألا أعود إليه ثانية . ولا تسألينى أن أصحبك إلى بيتك فلست أستطيع ذلك . ولست تستطيعين أن تفهمى لماذا ... لقد كنت أتمنى ذلك جدا لو أنك تعلمين ... »

ورأيت خلال دموعى أن قد ارتسم على وجهه شعور باليأس فقلت فى نفسى : «يا إلهى ، أريد أن أعلم لماذا . يجب أن أذهب الآن فى سرعة قبل أن يفسد كل شىء ... إنى واثقة الآن من أنه قد انتهى كل شىء ؟ وأنى ذاهبة وحدى إلى بيتى . ولكننى أحب أن أعرف لماذا ... لماذا ينتهى كل شىء ؟ لماذا ؟ يجب أن أعرف فلا أدع نفسى فريسة لحيرة تلازمنى طول حياتى ... لماذا يتركنى ؟ إنه إذن يحبنى ... وعندئذ ألقيت بنفسى بين يديه صارخة : لماذا ؟ ثم أزداد تعلقا به وأعود فأصرخ : لماذا ؟

ولا يطيق صبرا بعد هذا ، وأرى فى وجهه مزيجا من اليأس والتهكم ! إنه يستحيل أن يفصح . ياله من موقف مرعب ! ولكن يجب أن أعرف لماذا يتركنى . لقد أيقن أنه لا يستطيع أن يتركنى دون أن أعرف لماذا ، وخير لى أن أقف على الحقيقة ولو كان فيها ما يزيدنى أذى . وماذا عسى أن يضيرنى

من جرح هين صغير يضاف إلى جراحاتي ؟ وعدت أقول له : خبرني لماذا . أفصح ... أفصح وائذني فلست أبالي ... ومع ذلك عاد الخوف يملأ قلبي

وأخيرا قال لي « أتريدين حقا أن تعلمي لماذا ؟ » ونظرت إليه فوجدته قد تغير فجأة حتى لا أكاد أعرفه ، وقد بدا على محياه مزيج من اليأس والكبرياء . وعاد يقول لي « إنك تريدين أن تفسدي كل شيء ... هل عقدت العزم على أن تسمعي ؟ » ثم هز كتفيه . فقلت في نفسي : ربما كان ما أسمعه خيرا بالرغم من كل شيء

ويعود فيسألني « أتريدين حقا أن تعرفي لماذا ؟ »

فصحت به قائلة « نعم » ثم عاد يملأني الخوف ، ولقد اشتد خوفي حتى لقد انقلب هذا الخوف شجاعة

« حسن . إذن فانتظري »

وكانت لهجة الأمر في كلمته هذه . ثم إنه جذبني إليه وأسندني إلى كتفه وأخذ يقبلني في عنف وأخذت أشعر بقبلاته تسري في بدني كله وأحس أني جزء منه . وأتبين أني لست الآن ثملة بالكلمات والشمبانيا ولكن بشيء آخر وعلى صورة أخرى . إني أشعر وفمي على فمه وهو يبث في هذه الحيوية الدافقة ، بتيار الحياة ينبعث حارا في أوصالي وفي جسمي كله . ثم يدعني فينتهي كل شيء وأحس بالبرودة تشملني ويقول لي « هيـــا بنا نذهب .. أتحبينني ؟ »

فأجيبه قائلة : «أحبك»

ثم يتزلق في بطء .. أجل يتزلق من مقعده ويقف بجانبي وأنظر فإذا به من قصر الساقين بحيث أشعر بالرغبة في أن أضحك ملء شدقي .. ماهذا ؟ ! وهو على الرغم من منكبيه العريضين وامتلاء نصفه الأعلى لا يكاد يصل إلى كتفي وهو واقف بجانبي على ساقيه المسيختين

وأحس بالرغبة في أن أطلب من القزم الصفيح وأن أظل على حبي إياه وأن أقول شيئا ، ولكن ذلك كله يبدو لي سخيفا ، فليس ثمة ما أقوله ولقد فرغ بالي منه فراغا تاما ... ألا ما أغرب هذا الحلم !

وانطلقت من الصالة كأني أعدو دون أن أنظر إليه ، وأتمثله هناك واقفا على ساقيه المحنيتين المتخشبتين كأنه لعبة هزلية تمثل أحد الجند

وأندفع في طريقي ثم أندفع ، وفي خيالي ذلك الذي رأيته وهو نصف رجل . وأشعر بقلبي يفيض حسرة وأحس في جسمي دبيب الثورة . .

ولكن لكل يوم غد بالضرورة . . وغدي ؟ ترى ماذا يكون الغد ؟

محمود الخفيف